السلطان وسخطه فتوقفت بين الورد والصدر وبين اضطراب الرجاء واليأس ومن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ولا عرفت كما زعموا اصطلاحها فردها إلى صاحبها الأول وأنشطني من عقالها فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء تلحظني العيون بالرحمة وتتناجى الآمال فيّ بالعودة ورتعت فيما كنت راتعا فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته قانعا بالعافية التي سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه عاكفا على تدريس العلم أو قراءة كتاب أو إعمال القلم في تدوين أو تأليف مؤملا من الله قطع صبابة العمر في العبادة ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته والله سبحانه وتعالى الموفق

السفر لقضاء الحج

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين فاعتزمت على قضاء الفريضة فودعت السلطان والأمرا وزودوا وأعانوا فوق الكفاية وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين إلى مرسى الطور بالجانب الغربي من بحر السويس وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ووصلت إلى الينبع لشهر فوافينا المحمل ورافقتهم من هنالك إلى مكة ودخلتها ثاني ذي الحجة فقضيت الفريضة في هذه السنة ثم عدت إلى الينبع فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الشرقي ونزلنا بساحل القصير ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية إلى قاعدة قوص قاعدة الصعيد فأرحنا بها أياما ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر فوصلناها لشهر من سفرنا ودخلتها في جمادى سنة تسعين وقضيت حق السلطان في لقائه وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء فتقبل ذلك مني بقبول حسن وأقمت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه

وكنت لما نزلت بالينبع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة وفارس الأدبا ومنفق سوق البلاغة أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف جده بالطويجن وقد قدم حاجا وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة الحظي لديه أبي عبد الله بن زمرك خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق ويذكر بعهود الصحبة نصه

سلوا البارق النجدي من علمي نجد * تبسم فاستبكى جفوني من الوجد
أجاد ربوعي باللوى بورك اللوى * وسح به صوب الغمائم من بعد
ويا زاجر الأظعان وهي صوادف * دعوها تزد هيما عطاشا على نجد
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا * فإن زفير الشوق من مثلها يعدي
براها الهوى بري القداح وخطها * حروفا على طرس من البيد ممتد
عجبت لها أنى تجاذبني الهوى * وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العذيب وبارق * مياه بفيء الظل للبان والرند
فما شاقني إلا بدور خدورها * وقد لحن يوم النفر في قضب ملد
فكم في قباب الحي من شمس كلة * وفي فلك الأزرار من قمر سعد
وكم صارم قد سل من لحظ أحور * وكم ذابل قد هز من ناعم القد

خذوا الحذر من سكان رامة إنها * ضعيفات كر اللحظ تفتك بالأسد
سهام جفون عن قسي حواجب * يصاب بها قلب البريء على عمد
وروض جمال ضاع عرف نسيمه * وما ضاع غير الورد في صفحة الخد
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤا * فرش بماء الورد روضا من الورد
وكم غصن قد عانق الغصن مثله * وطل على كل من الشوق يستعدي
فنبه وداع قد حلا لعيوننا * محاسن من روض الجمال بلا عد
رعى الله ليلى لو علمت طريقها * فرشت لأخفاف المطي بها خدي
وما شاقني والطرف يرهب دمعه * ويسبح في بحر من الليل مربد
وقد سل خفاق الذوائب بارق * كما سل لماع الصقال من الغمد
وهزت محلاة يد الشوق في الدجى * فحل الذي أبرمت للصبر من عقد
وأقلق خفاق الجوانح نسمة * تنم مع الإصباح خافقة البرد
وهب عليل لف طي بروده * أحاديث أهداها إلى الغور من نجد
سوى صادح في الأيك لم يدر ما الهوى * ولكن دعا مني الشجون على وعد
فهل عند ليلى نعم الله ليلها * بأن جفوني ما تمل من السهد
وليلة إذ ولى الحجيج على منى * وفت لي المنى منها بما شئت من قصد
فقضيت منها فوق ما أحسب المنى * وبرد عفافي صانه الله من برد
وليس سوى لحظ خفي نجيله * وشكوى أرق من الجمان من العقد
غفرت لدهري بعدها كل ما جنى * سوى ما جنى وخط المشيب على فودي
عرفت بهذا الشيب فضل شبيبتي * وما زال فضل الضد يعرف بالضد
ومن نام في ليل الشباب بضلة * سيوقظه صبح المشيب إلى الرشد
أما والهوى ما حدت عن سنن الهوى * ولا جرت في طرق الصبابة عن قصد
تجاوزت حد العاشقين الألى قضوا * وأصبحت في دين الهوى أمة وحدي
نسيت وما أنسى وفائي وخلتي * وأي ربيع للقلب إلا من الوجد
إليك أبا زيد شكاة رفعتها * وما أنت من عمرو لدي ولا زيد
بعلياك خبرني وما زلت منصفا * أعندك من شوق كمثل الذي عندي
فكم ثار بي شوق إليك مبرح * فضلت به الأشواق تقدح من زند
وصفق حتى الريح في لمم الربى * وأشفق حتى الطفل في كبد المهد
يقابلني منك الصباح بوجنة * حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدي
وتوهمني الشمس المنيرة غرة * بوجهك صان الله وجهك عن رد
محياك أجلى في العيون من الضحى * وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد
وما أنت إلا الشمس علوا ورفعة * بعيد ويدنو من قريب ويلحظ من بعد
وفي غيرة من لا يرى الشمس غيرة * وما نفع نور الشمس في الأعين الرمد
من القوم صانوا المجد صون عيونهم * كما قد أباحوا المال ينهب للوفد
إذا أنجدوا جمت يوما على الأسرة * فما ألفوا إلا على صهوة المجد
وهم إن أغاروا مستجدين صريخهم * يشبون نار الحرب في الغور والنجد

خذوا

Copyright © King Saud University